

أسرار التقدم الآسيوي

تأملت طويلاً في أسرار تقدم بلدان جنوب وشرق آسيا بتلك المعدلات العالية ، التي أصبحت مضرب المثل في مجال التنمية ، وموضع الدهشة من البلاد الغربية ، وكذلك نموذجاً للمقارنة مع البلاد العربية التي سعت إلى التقدم في نفس الوقت الذي سعت هي الأخرى فيه ، بل ربما قبلها بعشرات السنين .

وسوف أعرض هنا لعدد من العوامل وراء نجاح هذه البلاد ، وفي مقدمتها أن شعوبها تقدس العمل . ولما تركن كثيراً لأحلام النوم أو أحلام اليقظة .

ومن أهم ما يميزشعوب الآسيوية أنها قليلة الكلام ، وبالتالي فهي قليلة المجدل حول أمور لا تقدم ولا تؤخر ، والمدليل على ذلك أنها لم تضيع وقتاً طويلاً في كيفية البحث عن وسائل التقدم.

وإنما ركزت على مجال واحد هو مجال المحاكاة، أى تقليل النماذج الناجحة في كل الميادين. فقد قلدوا صناعة السيارات الغربية حتى تفوقوا عليها، كما قلدوا أساليب الزراعة المتطرفة حتى بزوا فيها، ولأنهم بطبيعتهم تجار مهرة فقد استطاعوا أن يسوقوا ما ينتجونه، سواء على المستوى المحلي أو العالمي. وهنا سر يقف وراء تفوقهم يرجع إلى احترام مكانة كل شخص ووظيفته.

وقد يقال أن ذلك نوعاً من المطبقة الاجتماعية، ولكنها عند التحليل عبارة عن طبقية ديمقراطية بمعنى أن كل فئة من فئات المجتمع تعرف وظيفتها جيداً، وتكرس جهودها للإتقان فيها دون الانشغال بأحوال ومكاسب الفئات الأخرى.

وكأنهم بذلك يسيرون على المبدأ الموجود عندنا (كل ميسر لما خلق له). في ماليزيا مثلاً توجد أعراق متعددة، ومع ذلك لا يتدخل أحد في عادات الآخر وتقاليده ومعتقداته. فالكل مواطنون يعملون ويتعايشون وينعمون أخيراً بنتائج أعمالهم. الأمر الملافت للنظر بحق هو المحاولة المستمرة للإتقان، دون كثرة الحديث عنه. فالمنتجات الزراعية تم تطويرها على نحو مذهل، وكذلك المنتجات الصناعية والإلكترونية.

وهنالك تزاوج بين الجامعات ومراكز البحوث وبين مؤسسات الإنتاج من أجل تحسينه، وحل ما يعترضه من مشكلات. كما أن تشجيع المنشروعنات المصغيرة يسير جنباً إلى جنب مع المنشروعنات الكبرى أو العلاقة التي لا تقدر عليها سوى الدولة. المصانع الميدوية المصغيرة منتشرة في البيوت. والأسرة بكل أفرادها تعمل: فهنالك من يشتري الأدوات الأولية، وهنالك من يقوم بتصنيعها، وهنالك أيضاً من يقوم بتسويقها. ولما تحس بأن قبضة الحكومة على هذه المنشروعنات المصغيرة قوية أو خائبة، وإنما هي متروكة للعرض والمطلب.

والواقع أن المطلب متزايد، والعرض مستمر في محاولة الجودة والإتقان. كنا في الماضي لا نشق إلا بالإلكترونيات التي تصنع في اليابان، ثم ما لبث الصين وكورييا أن أصبحتا منافسین لها، وأخيراً دخلت إندونيسيا وماليزيا وتايوان..

هل تعلم مثلاً أن منتجات هذه الأخيرة التي أغرقت العالم والبلاد العربية يتم تصديرها بدون وزارة للتجارة الخارجية ، وإنما من خلال محلات ومصانع صغيرة للغاية ، يتواجد فيها تجار يعطون كل زبون ما يحتاج إليه ؟

المطبيعة جميلة جداً في بلدان جنوب شرق آسيا . كما أنها أحياناً قاسية ببراكينها وزلازلها وفيضاناتها المدمرة ، ولكن الإنسان استطاع أن يعيش فيها ويعيش معها ، وأن يبني حضارة متميزة ، أصبحت محطة أنظار السياح في العالم .

سألني صديقي : باختصار ما هي أهم عوامل تقدم هؤلاء الناس ؟ قلت له : يعني تريد من الآخر ؟ قال : أجل . قلت : قلة الكلام ، والعمل المتواصل ، والإتقان . وبالمناسبة من أهم ما لاحظته عندهم هو عدم وجود مذيعة ربط في التليفزيون !!